

نفسية العامل

بين الاطمئنان والقلق

يعمل الفلاح في مزرعته بكديده، ويبذل في تسوية العمل وإنتاجه عافية جسمه، فهو إذن عامل ينطبق عليه من موضوعنا هذا ما ينطبق على عامل المصنع وسواه .

وما دام الفلاح والعامل كلاهما سيكون في مكان واحد من هذا الموضوع فسيكون تعبيرنا باسم أحدهما "العامل" تعبيراً عنهما معا .

وبعد ذلك فقد فرغنا من التسليم بالحقيقة الأولى في شأنهما، وهي أن كليهما محتاج الى الإصلاح المتبع في مظاهر حياته المادية، فالقرية وأوضاعها ومسالكها ودورها، والماء الذي يشربه أهلها، وكذلك مساكن العمال وما يتصل بها من ذلك، محتاج أن تنشأ من جديد وعلى التدريج نشأة تصبح بها بيوت أحياء لا مقابر أموات، وتنظيم العمل في مدنى ساعاته وفي حساب أجره وفيما يقوم عليه من علاقة بين العامل وصاحب العمل يحتاج الى أن يوضع في ميزان العدل وضعا لا حيف فيه ولا إرهاق، والتغذية الكافية والصحة الموفورة يحتاج في تيسرها لهؤلاء الذين يعيشون في قرية الريف وفي الحى القائم على أطراف المدينة الى عناية يعلم مبلغها من يعلمون أن هذا الذى يشق الأرض بفأسه، وهذا الذى يبذل الصنعة بأداته، كلاهما من الأمة بمنزلة العصب في الجسم والدم في العروق .

وقد توفرتنا على العناية بكل ذلك، وذهبت هذه العناية في مختلف وجوهها مذاهب الجلد والنشاط، وانتهينا بعد التفكير الى مشاريع التنفيذ ليجدوا كفاية حياتهم من الغذاء والدثار، ولتنبأ لهم أسباب النجاة من سوء التغذية والملبس والمأوى وما وراء ذلك من تهديم الأجسام وضياح العافية .

ولكن الى جانب هذه الحقيقة التي أدركناها وشرعنا نعمل لتنفيذها حقيقة أكبر منها لا نظن أنها وقعت لأكثرنا في حساب ، وهذه الحقيقة هي الحالة النفسية التي نستحوذ على قلب العامل والفلاح في هذه الأيام والتي نخشى يوم ننصرف عن تمام الإصلاح المادى مطهئين الى نتيجته أن يعترضنا منها ما يجعل هذا الإصلاح قليل الجدوى ضئيل الفائدة .

ولأجل أن تصبح المسألة قريبة من التصور نفرض أننا أنشأنا للفلاح قرية جمعت بحسن تنظيمها كل ما يحتاج اليه في حياته الريفية من أسباب الصحة وراحة البال ، ثم نفرض أننا نرى أختانا الفلاح وهو يسير على جسر التزعة في يوم شديد الحر عاندا من حقله الى قريته ، فهل نراه اذا اشتد به العطش أو ضايقه الحرا لا يميل الى التزعة فيعرب منها ليطفئ عطشه بما فيها من أقدار الماء ولا يلقى نفسه بين بلتها ليهترد بمائها الملوث بالجراثيم ؟ أو نراه يصبر قليلا حتى يصل الى القرية حيث ينتظره ما وها النقى وحمامها التنظيف ؟

وكما نفرض هذه الصورة من الواقع في شأن الفلاح نفرض صورة أخرى من الواقع في شأن العامل ، فهب أن أختانا العامل استوفى غاية الانصاف في تقدير الأجر وتحديد ساعات العمل وضمان التعويض لما يصيبه أثناء العمل من أخطاره ، وهذه كلها حقوق طبيعية واجبة الأداء والاحترام ، ثم هب أننا أردنا أن نراقبه بعد أن تستقيم له هذه الحقوق ، فإذا نراه يفعل فيما يزيد من فضلة الزمن على ساعات العمل ؟ وكيف نجده ينفق الأجر الذي لم يتاه الا بعد أن سالت عليه عافيه قطرة فقطرة ؟ هل ينفق فترة الزمن في ثمرة ينتجها ، أو في خير يوديه ، أو في كلمة طيبة يستفيدها ؟ وهل يصون أجره عن الضياع فيما يشع أحشاء الشيطان وأحشاء أهله وأبنائه خاوية ؟ وهل يضمن أسلوب حياته البيتية المألوفة أن يستمتع في مسكنه الصحي الجديد المنتظم بحياة لا تتعثر في مساوئ هذا الأسلوب المألوف ؟

ومع ذلك فهذا أيضا جانب مادى من جوانب حياته وإن كان مرجعه الى الحالة النفسية أو الى الطبع الثابت والعادة المستقرة ، أما جوانب الحالة النفسية المحضة فقها من العناية والالتفات على قدر ما يؤدي اليه نسيانها من الخطر وسوء المصير .

لم يعد العامل المصرى محجوبا عن الدنيا ، فهو يقرأ ويسمع ويدرك مما يسمع ويقرأ أن مدى الحياة أبعد من أن تحده في مصر حدود المكان والزمان ، وقد أصبح يتحدث في الشؤون السياسية العامة ويزعم أنه يفهمها وأن له فيها رأيا يؤمن به إيمانه بصحة فهمه ، وأصبح يتحدث في شؤون العمل والعمال وفيما يعترى هذه الشؤون من مذاهب وآراء ، وأصبح يتخذ من حركات العمال ومذاهبهم في بلاد الغرب مرآة يرى فيها نفسه ومصيره وقيس عليها آماله ويمدد بها اتجاهاته ، ولنا نجهد أن نتطرق تفكيره في هذه النواحي لا يزال ضيقا ، وأن

عامل الفلاحة في الريف أقل التفاتا اليها وأضعف عناية بها من عامل المصنع في المدينة ، ولكنها موجودة على كل حال وجودا لم تعد معه بذرة جافة ، بل لم تعد بذرة يمنحها توهم عدم صلاحية التربة من أن تنبت وتتمو وتصير شجرة لما جذع ضخم وفروع متكاثرة ، فهذه البذرة الموجودة فعلا هي التي نريد أن نتعاملها عناية المصلحين لا على أن تردا عدما — فذلك فيما نظن مطلب عسير المنال — بل على أن تحيطها من أسباب الوقاية بما يعطل بها عن طريق الخطر .

وقد تسأل عن هذه الوقاية ماذا هي وكيف تكون أسبابها ؟ فنقول : كان العامل المصرى يحمل بين جنبه من إيمان قلبه وطمأنينة نفسه ضمان التنوع والهدوء ، فلما أوشك أن يفقد هذا الضمان أوشك أن يفقد هدوءه وقنوعه خداع ما يرى ويسمع .

ترجع النهضة الحديثة في مصر إلى همة محمد علي الكبير ، ولا يرتاب أحد في أن سواعد العمال وجهود العمل في الزراعة والصناعات كانت عماد هذه النهضة في فجرها الصادق ، وقبل ذلك كانت جهود العمل وسواعد العمال هي التي رفعت شواخ الآبار في عصر المماليك وفي العصور التي سبقتة مما لا تزال تنطق به الهائر الضخمة والمشاهد الخالدة ، وكان أولئك الذين خلدوا بأيديهم هذا المجد العظيم عمالا وصناعا مصريين هم السلف الطيب للصناع والعمال المصريين في هذه الأيام ، ونحن لم نزل نرى في هذه الآثار أمثلة عجيبة لجهود الشاقة المضنية التي رفع بها أبطال العمل في تلك العصور أركان هذا البناء ، وقد كانوا مع ذلك قانعين من الإيمان وطمأنينة القلب ورجاء المثوبة المنتظرة في الدار الآخرة بما يملأ نفوسهم سلوة وعزاء ، لأنهم كانوا يستمدون من هذا العزاء وهذه السلوة صبورا لا ينضب معينه وقوة لا ينتهي جديدها .

ولكن عمالنا في هذه الأيام أصبحوا وحظهم من منع العزاء والسلوة ضائع أو مرشك أن يضع ، وبذلك صاروا عرضة لما يترأى لهم في الآفاق البعيدة من ختل المذاهب البراقة والآراء الجامحة ، ولم يعودوا يتذكرون أن كل شيء في هذه الحياة نسبي ، وأن الله الذي خلقهم للعمل وشرفه والصناعات ومجدها ، أبقى إلا أن تكون لهم مناعة أجسام يكفيهم معها الثوب أو الثوبان حين لا يكفیان أصحاب الأجسام المترفة ممن يكونون في الحياة العامة بالعقول والقلوب لا بالسواعد والآلات ، كما أبقى إلا أن تكون لهم معدات تهضم الهدس والبصل ونحوهما من الأغذية التي تجبل فائدتها وترخص قيمتها مهما انقبضت عنها شهوة النفس حين لا تلتهم معدات المترفين غير الأغذية التي تقل فائدتها وتغلو قيمتها ولا تنقبض عنها شهوة الآكلين .

أما سبب هذه الحالة الطارئة التي تبدلت بها نفسية العامل المصرى ، فهو أن محيط الحضارة العصرية دلس عليه حقائق الحياة وغشه فيما تقوم به علاقات الطوائف بعضها ببعض من روابط وفروق ، وفيما تتضمنه هذه الفروق والروابط من دفع وجذب وتقارب وتباعد . وقد كان من الخير أن يبقى على سجيته الهادئة المطمئنة ليمتدح حظه من هدوء النفس موافقا لهذه الطبيعة المصرية التي تمتاز بالرزانة والهدوء ، ولكن هذا الخير الذى كان واجبا أن يبقى وأن يصرح لم يلبث أن عصفت به هذه الرياح نفثها التي عصفت بإيمان القلوب فسلبتها راحتها الكبرى ، وسدت على النفوس سبيل الرضا فخرمتها نعمة الاطمئنان ، وملاّت الصدور حرما وضيقا فملاّت الجوانح تبرا وفنوطا ، على أن هذه الحالة النفسية لا تزال غير مستعصية ولا معضلة ، فاذا لم نتداركها منذ الآن بوسائل العلاج وأسباب الوقاية فقد لا نؤمن أن تصح للعمل والعمال في مصر مشكلات يحار فيها رجالنا المصلحون حيرة أمثالهم بمثلاثها في بلاد الغرب .

ومع ذلك فالشأن مختلف عندنا وعندهم ، فهناك لا ترى في ميادين الكفاح غير المادة يعيط طغيانها بتفكير العقول وهوى القلوب وعمل الأيدي وخطوات الاقدام ، حتى لم يبق للجانح الروحية في هذه الميادين سلطان مطاع ولا أثر محمود ، ومن هذه الناحية يستطيع دعاة الاصلاح الغربيون أن يجدوا لأنفسهم عذرا مقبولا ، ولكنهم مع هذا العذر الذى يسعفهم به واقع الحياة لم يكفوا عن محاولة العلاج رغم ما يعلمونه من قوة التيار وشدة انحداره عمى أن تلتوى طريقه ويخف اندفاعه .

غير أن المسألة لا تزال عندنا كما قلنا في صدر هذا الكلام بذرة جافة ، فعلى أن ننظر هل تجدد هذه البذرة تربة صالحة تنمو فيها ؟ وهل بلغ بنا ضغط الحياة مبلغا تنفتح به هذه البذرة عن العنصر الذى تنبت منه ؟ وهل في مصادر حياتنا الطبيعية من البخل والجفاء ما تقوم به المغالبة على العيش مقام المعارك بين المتقاتلين ؟

كنا نقول قبل اليوم إن بلادنا زارعية ، فمشكلات العمل والعمال مأمونة فيها ، وكان هذا القول صحيحا على وجهه يوم كانت النهضة الصناعية والعملية لا تزال سرا من أسرار الغيب ، فاذا صح أن هذه البذرة الجافة لا تجد لها تربة صالحة بين محيط العمل في فلاحه الارض وزرعها فقد يصح أن تجد هذه التربة في محيط النهضة الصناعية وفيما تكفله حاجتنا الحربية والاقتصادية لهذه النهضة من الامتداد والسعة وتراعى الأطراف .

والواقع أن مصادر الحياة في مصر لا تعرف البخل والجفاء ، ولكن الواقع أيضا أن كرم هذه المصادر ولينها أصبحتا مدحرجن لمجد الدولة وللمستقبل العظيم الذى نتطلع إليه ، أى للأعباء الثقيلة والتكاليف البالغة التي ألقتها على عاتق البلاد حاجتنا الحربية والاقتصادية .

فبأى شعور إذن نريد أن يقبل العامل المصري على هذا المستقبل الذى طالعتنا مقدماته؟
هل نرى أن يقبل عليه بشعور النفس المادية وإحساس الضمير الجاحد فيصبح فريسة للتبرم
والقنوط وتصبح الأمة معتلة منه بما يمثل به العرق النابض والعضو المتحرك؟ أو نرى أن
يقبل عليه بإحساس الضمير المؤمن وشعور النفس المطمئنة فيصبح سعيدا بنفسه وعمله
وتصبح الأمة صحيحة منه بما تصح به النفوس والأبدان؟

إن أوجب ما يجب من حق العامل أن نوفر له أسباب الأمن والسلامة في نفسه وحياته
وعيشه، وأن نمكته من أن يوفّر لأهله وأبنائه حاجتهم من هذا الأمن وهذه السلامة، ولكن
أكبر من ذلك وجوبا أن توفّر الأمة لنفسها في شخصه سلامة الاتجاه وأمن السبيل، فتعيد
إليه صدق إيمانه وترده الى ما في الإيمان من طمأنينة القلب وعزاء النفس ومقابلة الشدائد
بالصبر والرضا وصدق اليقين.

وبعد، فلا بد لنا أن نلاحظ مسألة اقتضاها، فيما نعتقد، تاهب المصلحين على إسعاد
العالم بأقصى ما يتصورونه من وسائل الإسعاد، وهذه المسألة هى أن الدعاة القائمين الى
جانب العمل مقام الانتصار لهم لا يقتصرون في المبالغة ولا تسلم أصواتهم من اقتراض الآمال
التي تفتيح لها القلوب وتعلق بها الأوهام في حين أن الجهود قد تقصر عنها وأن الزمن قد
لا يسمح بها.

ولا شبهة أن المطامع تمتد في النفوس وتمتد بها بقدر ما يمتد لها من حبال الأمل على
ألسنة الدعاة والمفكرين، فاذا وقفت عوائق الزمن في الطريق أو نفذ ما في وسع الطاقة قبل
الوصول الى الغاية المشتهة كان رد الفعل بذلك غير مأمون العاقبة، فقد تتوهم النفوس حينئذ أنها
أصيبت بالحerman من غير حق فيتسلط عليها القلق وسوء الظن وتصبح مستعدة لقبول الدعوات
الهدامة والآراء المظلمة.

ولهذا يحسن بكل من يدعوه الاخلاص لهذه الأمة والحرص على مصلحة العمال الى
العمل في هذا الميدان أن يكون رفيقا في دعويته وتفكيره، وألا ينسى مستقبل العمال كلما
فكر في حاضرهم.